التجريد بالدلالات الاجتماعية. ان اختيار النماذج والحالات، هنا، يجيب على سؤال مطروح سلفاً: أي فلسطيني نعني؟

انه بالقطع ليس البورجوازي الفلسطيني، فهو لا يجد له مكاناً في هذه القصص. إنه إنسان قد اختار خلاصه الخاص، انتمى الى البورجوازية أو البيروقراطية المجاورة وتجاوز مأزقه.

ان ما تعنى به هذه القصص هو الفلسطيني الفقير. وهو، حتى وان مارس ثورته الاجتماعية، فلا طبقات عليا يثور عليها ليستعيد حقوقه. انه مقتلع حتى من حلبة الصراع الاجتماعي.

وليس هذا وحده هو الارهاص الوحيد بذلك الطابع الفريد للثورة الفلسطينية: ثورة تبحث عن أرض، وعليها أن تقتحم أرضاً زرعها الأعداء بالجنود وبالسكان، وبمعنى آخر، انها ثورة اجتماعية، ولكن عنصرها الأساسي هو الفدائي.

إننا هنا نعيش إرهاصاً للفدائي عبر معطيات متعددة:

(أ) ان معظم الشخصيات تسير نحو موتها مفتوحة العينين. هذا ما نجده عند «أبو خميس» الذي يختار موته حتى تعيش زوجته وبناته. وهذا ما فعله ذلك الأخ، الذي مات في أقبية مخابرات دولة، غير محددة الهوية. وهو ما فعله «جبر» حين اختار الموت أمام الدبابات اليهودية الزاحفة حتى ينجو زملاؤه. وهو ما فعله بطل قصة «وانهار الجدار».

(ب) الارهاص الآخر للفدائي، هو أن كل أساليب الفعل قد امتنعت أمام هذه الشخصيات، ولم يبق أمامها سوى الاستشهاد. حتى أقل القصص إيحاء بذلك تحمل هذه الدلالة. أعني بها قصة «سلة الملوخية». فحين تمددت كومة الملوخية كالجثة، لم تفعل ذلك بمنطق الاستعارة والتشبيه البلاغيين. بل كانت إيماء الى المصير ــ المأزق: اذا أكلنا اليوم، فسنعيش بلا طعام أربعة أيام قادمة «والجثة الممددة التي أطبقت بأصابعها المعروقة على رقبتي حتى انتزعت مني قوت أربعة أيام طويلة». أوليس شراء اللحمة، هنا، تجسيداً وإيماء الى فعل استشهادي؟

(جـ) ان مجانية هذا الموت تطالب بملء هذا الموت بمضمون الحياة. ففي قصة «وانهار الجدار» يقبل الراوي موته، بل يكاد يفرح به، لأنه تافه لم يحقق شيئاً هاماً في حياته. انه ميت قبل الموت. فكيف يُكسب حياته معنى؟ كيف يمكنه أن يفعل ذلك وسط ظروف الحصار، التي تحدثنا عنها منذ قليل؟

ان الاجابة على هذا التساؤل تفرض علينا فرضاً: حتى يكون لحياة الفلسطيني معنى، حتى تمتلىء بالدلالة والانجاز، يجب أن يكون لموته معنى. ان هذه المعادلة المقلوبة هي القدر الفلسطيني. وبهذا يصبح الاستشهاد هو الوسيلة لملء حياة سابقة من الاذلال والتفاهة واللاجدوى.

(د) كما ذكرنا، فان الأموات ــ الشهداء، أو الضحايا ــ الشهداء، يلقون ظلالهم بكثافة على الأحياء، في هذه المجموعة. انهم يرسمون، بشكل ما، طريق الأحياء. «محمد